الأسلوب القرآني في قصص الأنبياء

للدكتور محمد الطيب النجار

رسالات الأنبياء إلى الناس قديمة ، ودعوتهم إلى الله تالدة خالدة تمتد جذورها إلي الإنسان الأول وهو آدم أبو البشر ، وتنتهي فروعها بانتهاء هذا الجنس البشري كله وقيام الناس لرب العالمين .

وإذا كان محمد بن عبد الله صلوات الله وسلامه عليه هو خاتم الرسل والأنبياء فإن رسالته لا تزال ممتدة إلى يوم الناس هذا يحملها خلفاؤه والعلماء من أمته علي توالي الأجيال .

والأنبياء هم السفراء بين الله وبين عباده يوحي إليهم الله بما يشاء ثم يبلغون للناس ما يوحى إليهم ويؤيدهم الله بالمعجزات برهانا على صدقهم وآية على أمانتهم فيما ينقلون عن ربهم .

وإذا كان كل نبي مأمورا بتبليغ الدعوة إلى الناس فإنه يكون رسولا من الله إليهم ، وعلى هذا الأساس يكون كل نبي رسولا ويكون كل رسول نبياً ، ولذا سمى الله جميع الأنبياء الذين ذكرهم في القرآن الكريم فيقول : " ورسلاً قد قصصناهم عليك من قبل ورسلاً لم نقصصهم عليك " (النساء آية ١٦٤) .

وهؤلاء الأنبياء الذين ذكرهم الله في كتابه هم خمسة وعشرون نبيا منهم ثمانية عشر في أربع آيات متتالية في سورة الأنعام وهي قوله تعالى : " وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه ، نرفع درجات من نشاء إن ربك حكيم عليم ، ووهبنا له إسحاق ويعقوب ، كلاً هدينا ونوحا هدينا من قبل ومن ذريته داود وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وهارون ، وكذلك نجزى المحسنين . وزكريا ويحيى وعيسى وإلياس كل من الصالحين . وإسماعيل واليسع ويونس ولوطا ، وكُلاً فضلنا على العالمين " والسبعة الآخرون هم : آدم وإدريس وهود وصالح وشعيب وذو الكفل ومحمد عليهم صلوات الله وسلامه أجمعين .

وقد نظم ذلك بعض الشعراء فى قوله:

فى (تلك حجتنا) منهم ثمانية
من بعد عشر ويبقى سبعة وهمو
إدريس هود شعيب صالح وكذا
ذو الكفل آدم بالمختار قد ختموا

وأول مـــا تلاحظه فى هؤلاء الرسل الذين قصصهم الله علينا فى كتابه أنهم بعثوا فى بلاد متقاربة فلم يتجاوزوا قارتى آسيا وإفريقية . وليس معنى ذلك أن النبوات قد اقتصرت على هذا الجزء اليسير من العالم. فإن قوله تعالى : "ورسلا قد قصصناهم عليك من قبل ورسلا لم نقصصهم عليك " يعنى أن هناك أنبياء آخرين قد أرسلهم الله ولكنه لم يذكر أخبارهم لمحمد بن عبد الله صلوات الله وسلامه عليه " ولعل رسالة الأنبياء قد نفذت قديما وراء بحر الظلمات فأنارت الطريق لمن كانوا يعيشون وراء بحر الظلمات . ولعلها اكتشفت الدنيا الجديدة قبل أن يعرفها المكتشفون الحديثون . ذلك بأن رحمة الله عز وجل لا يمكن أن تترك جزءا من العالم يتخبط فى ظلمات الجهالة والضلالة وتختص جزءا من العالم بالهدى والنور .. وإلى ذلك يشير الله عز وجل بقوله : " وإن من أمة إلا خلا فيها نذير" (سورة فاطر آية ٢٤).

وقد جعل الله من حق البشرعليه أن يبصرهم بالطريق المستقيم ، ويميز لهم الخبيث من الطيب . وجعل من حقهم إذا لم يبعث لهم الرسل يبينون لهم الحق من الباطل والحلال من الحرام جعل من حقهم أن يلتمسوا منه رفع العذاب عنهم إذا ما انزلقوا إلى الذنوب والآثام . وذلك إنجازا لوعده حيث قال فى محكم كتابه : " وماكنا معذبين حتى نبعث رسولا " .

ويحضرنى بهذه المناسبة سؤال يدور فى خلد الكثير من الناس وهو : ما بال هؤلاء الذين يعيشون فى مجاهل إفريقية وغيرها ويتلقفهم المبشرون من غير المسلمين منذ نعومة أظفارهم فيحيون ويموتون دون أن يشعروا بأن هناك دينا يقال له الإسلام ؟ مابال هؤلاء الناس ؟ هل يعذبون لعدم اعتناقهم الدين الحنيف؟ أم يرتفع عنهم الحساب والتكليف ؟ وفى

اعتقادى أنهم - حيث لم تبلغهم الدعوة - سيدخلون - إن شاء الله - فى نطاق قوله تعالى : « وماكنا معذبين حتى نبعث رسولا» الآية ١٥ سورة الإسراء . وإذا كان هناك مجال للتعذيب فإنما ينصبُّ على بعض العلماء من المسلمين الذين يقصرون في تبليغ الدعوة وهم ورثة الأنبياء ويؤثرون فى متاع الحياة القليل على الجهاد والتضحية والفداء .

تلاقي الأنبياء والرسل :

وحينما تتبع الأنبياء والمرسلين فى كتاب الله عز وجل ونلقى نظرة دقيقة على الآيات التى تعرضت لذكرهم وقصت علينا من أنبائهم يتبين لنا أنهم قد أتفقوا جميعا فى دعوة أقوامهم إلي توحيد الربوبية والألوهية وإخلاص العبادة والخضوع له تعالى والإيمان باليوم الآخر وما فيه من الجزاء على الأعمال والحث على التحلى بمكارم الأخلاق والتحذير من العادات الخبيثة والأخلاق السيئة ففى قصة نوح يقول الله تعالى : «لقد أرسلنا نوحا إلى قومه فقال ياقوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره إنى أخاف عليكم عذاب يوم عظيم» الأعراف آية ٥٩.

وفى قصة هود يقول الله تعالى : «وإلى عاد أخاهم هودا ، قال يا قوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره أفلا تتقون » الأعراف آية ٦٥ .

وفى قصة صالح يقول الله تعالى : «وإلى ثمود أخاهم صالحا ، قال يا قوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره هو أنشأكم فى الأرض واستعمركم فيها فاستغفروه ثم توبوا إليه ، إن ربى قريب مجيب » هود آية ٦١ .

وهكذا فى قصة إبراهيم وموسى وعيسى ومحمد وسائر الأنبياء والمرسلين عليهم صلوات الله وسلامه أجمعين . ولا غرو فهم جميعا يأخذون من منبع واحد ويهدفون لغاية واحدة كذلك يقول الله تعالى:« شرع لكم من الدين ماوصى به نوحا والذى أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولاتتفرقوا فيه » . ويقول سبحانه وتعالى: « وما أرسلنا من رسول إلا نوحى إليه أنه

لا إله إلا أنا فاعبدون » . ويقول تعالى : «إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده ، وأوحينا إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وعيسى وأيوب ويونس وهارون وسليمان ، وآتينا داود زبورا » النساء آية ١٦٣ .

ويتبين لنا من ثنايا القصص القرآنى للأنبياء والمرسلين أن دعوة الإصلاح التى نادوا بها كانت تصل أول ما تصل إلى قلوب المظلومين والضعفاء ، أما السادة الأقوياء فكانوا هم أساس الداء ومبعث الشر والبلاء . وليس فى ذلك ما يدعو إلى العجب لأن الملأ من الناس فى جملتهم يأنفون أن يكونوا أتباعا مقلدين ، ويرون فى ذلك العار والصغار والوبال والنكال وهذه الظلمات المتكاثفة من الكبرياء والأثرة والغرور كانت تحجب الحق عن قلوبهم ومن أجل ذلك كانوا يتشبثون بالباطل ويسخرون ممن أخلصوا للحق واتبعوا دعوة الرسل ويسمونهم الأراذل واستمعواإلى قوله تعالى فى قصة نوح «ولقد أرسلنا نوحا إلى قومه إنى لكم نذير مبين . ألا تعبدوا إلا الله إنى أخاف عليكم عذاب يوم أليم . فقال الملأ الذين كفروا من قومه ما نراك إلا بشرا مثلنا وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا بادى الرأى وما نرى لكم علينا من فضل بل نظنكم كاذبين » سورة هود آية ٢٥ وما بعدها .

ويتحدث القرآن الكريم عن هذا المعنى فى سورة أخرى ، وفى صدد الكلام عن نوح أيضا فيبين أن العلة فى عدم إيمان السادة الكبراء من قوم نوح أنهم رأوا عامة الناس وفقراءهم قد اتبعوه فأنفوا أن تجمعهم مع هؤلاء الأصاغر جامعة أو تربطهم بهم وشيجة وفى ذلك يقول الله تعالى : « قالوا أنؤمن لك واتبعك الأرذلون » الشعراء آية ١١١ .

وفى قصة هود وصالح نرى الملأ وهم الأشراف والسادة يتولون كبرالمعارضة لهذين النبيين ويحاولون أن يضلوا الضعفاء من الناس وأن يقاوموا دعوة الإيمان بالبطش والطغيان .

بل إننا لنجد هذا المعنى يتجلى بكل وضوح فى موقف فرعون وملئه من موسى وقومه . فلقد كان هناك أشراف مستبدون فى أيديهم الملك والسلطان ومعهم الثروة والجاه والقوة وهم فرعون وملؤه ، ويقابلهم جماعة مستضعفون ليس لديهم ثروة ولاجاه ولا قوة ولا ملك ولا سلطان ولا يملكون إلا ما تنطوى عليه نفوسهم من إخلاص وإيمان وهم موسى وقومه . ولقد كان الصراع رهيبا بين الفريقين ثم أحكم الله آياته فنصر الحق وأعلى لواءه ... وإلى ذلك يشير الله عز وجل بقوله فى سورة الأعراف : « وقال الملأ من قوم فرعون أنذر موسى وقومه ليفسدوا فى الأرض ويذرك وآلهتك . قال سنقتل أبناءهم ونستحيى نساءهم وإنا فوقهم قاهرون . قال موسى لقومه استعينوا بالله واصبروا إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين »

ثم يقول سبحانه فى نفس السورة «وتمت كلمت ربك الحسنى على بنى إسرائيل بما صبروا ودمرنا ما كان يصنع فرعون وقومه وما كانوا يعرشون».

وفى تاريخ خاتم الأنبياء والمرسلين محمد بن عبد الله صلوات الله وسلامه عليه ما يدل على أن الذين اتبعوه في أول أمرهم هم الضعفاء وأن الملأ من قريش هم الذين كادوا له ثم ائتمروا به ليثبتوه ، أو يقتلوه ، أو يخرجوه . وأن الله كان يقص عليه من أنباء الرسل ما يُثَبِتَ به فؤاده ثم يأمرهم باتباع طريقهم حيث يقول سبحانه : « فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل » الأحقاف آية ٣٥ .

ومن الثابت عن ملك الروم هرقل أنه سأل أبا سفيان عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : أأشراف الناس يتبعونه أم ضعفاؤهم ؟ فأجابه أبو سفيان : بل ضعفاؤهم . فقال هرقل : وهؤلاء هم أتباع الرسل .

وقد جرت سُنَّة الله مع أنبيائه ورسله بأن يرعى هؤلاء الضعفاء من أتباعهم حتى يصيرواأقوياء ثم يتم عليهم النعمة بالنصر على الأعداء « ونريد أن نمن على الذين استضعفوا فى الأرض ونجعلهم

أئمة ونجعلهم الوارثين» (القصص آية ٥) « إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا فى الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد » (غافر آية ٥١) .

أسلوب القصة القرآنية :

وحينما نتتبع القصص القرآنى للأنبياء والمرسلين نلاحظ أن القصة الواحدة تذكر أحيانا فى سور متعددة حتى لقد ذكرت قصة موسى فى ثلاث عشرة سورة ، ولاشك أن هذا اللون من الأسلوب يهدف إلى دعم المعانى وتأكيدها فى القلوب فالغافل الذى لا يستيقظ إذا دعى مرة واحدة ربما يستيقظ إذا دعى أكثر من مرة . والعاقل قد تمر به صورة من الصور فلا يعى كل شئ فيها بل يغفل عن بعض الجوانب فإذا تكرر عرضها عليه من زواياها المختلفة ونواحيها المتنوعة زاد يقظة وانتباها وأحاط بها من كل جانب .

والمصور الحاذق الذى يريد إعطاء الصورة الكاملة لأى كائن من الكائنات لا يكتفى بلفظة واحدة بل يصوره فى اتجاهات مختلفة ومن زوايا متعدد فتارة تكون الصورة نصفية وأحيانا تكون جانبية . ومرة أخرى تشمل الجسم كله من الأمام أو من الخلف وهكذا تتابع الصور لأجزاء هذا الجسم حتى تتكشف حقيقته ويكتمل وضوحه .

ولذا كان من لطائف القرآن الكريم أن القصة الواحدة للنبى تذكر فى سور متعددة ولكنها تختلف فى كل سورة عن الأخرى بل فى كل آية عن الأخرى حتي أن المؤرخ إذا أراد أن يستمد من الكتاب العزيز قصة نبى من الأنبياء فإنه يتحتم عليه أن يتتبعها فى جميع السور آية آية وأن يتعمق فى فهم الآيات المتقاربة في ألفاظها لأنها على تقاربها تشير إلى معان مختلفة وأغراض متنوعة .

ولنضرب لذلك مثلا قصة شعيب عليه السلام فلقد ذكرت فى سورة الأعراف وفى سورة هود ، وفى سورة الشعراء ونرى الحديث عنها فى كل سورة من هذه السور تاما شاملا يعطى فكرة واضحة عن هذا النبي وما تحمَّله من أذى فى

سبيل الدعوة وكيف نصره الله وأذاق أعداءه الويل والنكال . ولكن الأسلوب وطريقة العرض تختلف فى كل سورة وكذلك الحوار الذى يدور بين هذا النبى وقومه يختلف فى كل سورة عن الأخرى وكأنما هو تصوير لمواقف متعددة بين الفريقين . ففى سورة الأعراف يقول الله تعالى : « وإلى مدين أخاهم شعيباً ، قال ياقوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره ، قد جاءتكم بيّنة من ربكم فأوفوا الكيل والميزان ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تفسدوا فى الأرض بعد إصلاحها ، ذلكم خير لكم إن كنتم مؤمنين » آية ٨٥ .

وأما فى سورة هود فيقول : « وإلى مدين أخاهم شعيبا ، قال ياقوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره ، ولا تنقصوا المكيال والميزان ، إنى أراكم بخير وإنى أخاف عليكم عذاب يوم محيط » آية ٨٤.

وفى سورة الشعراء يقول : « كذب أصحاب الأيكة المرسلين . إذ قال لهم شعيب ألا تتقون إنى لكم رسول أمين . فاتقوا الله وأطيعون . وما أسألكم عليه من أجر إن أجرى إلا على رب العالمين . أوفوا الكيل ولا تكونوا من المخسرين وزنوا بالقسطاس المستقيم ، ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تعثوا فى الأرض مفسدين .» آية ١٧٦- ١٨٣.

وهكذا نرى شعيبا فى سورة الأعراف يذكرهم بالبينة التى جاءتهم من ربهم وهى رسالته من الله إليهم ثم ينهاهم عن الإفساد فى الأرض .

ولكنه فى سورة هود يأمرهم بألا ينقصوا المكيال والميزان حتى يكونوا بخير فى دنياهم ويأمنوا عذاب الله فى آخرتهم ، وأما فى سورة الشعراء فيشير إلى الأمانة التى حمّله الله إياها فيقول : « إنى لكم رسول أمين » ثم يبين أنه لا يطلب بهذه الدعوة دنيا يصيبها وإنما يلتمس الأجر من الله رب العالمين .

ثم يصور الله عز وجل لنا حديث الملأ الذين كذبوا شعيبا ورد شعيب عليهم فى صور مختلفة وأساليب متنوعة فيقول فى سورة الأعراف : « قال الملأ الذين استكبروا من قومه لنخرجنك يا شعيب

والذين آمنوا معك من قريتنا أو لتعودن فى ملتنا قال أو لو كنا كارهين قد افترينا على الله كذبا إن عدنا فى ملتكم بعد إذ نجانا الله منها ، وما يكون لنا أن نعود فيها إلا أن يشاء الله ربنا، وسع ربنا كل شئ علما ، على الله توكلنا ، ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الفاتحين » آية ٨٨ ، ٨٩ .

أما فى « سورة هود » فيتغير اتجاه القصة وتجرى فى شكل محاورة بين شعيب وقومه فيقول تعالى : « قالوا ياشعيب أصلاتك تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا أو أن نفعل فى أموالنا ما نشاء ، إنك لأنت الحليم الرشيد » ، (وكلمة إنك لأنت الحليم الرشيد كلمة يريدون منها التهكم به والازدراء له) ، « قال ياقوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربى ورزقنى منه رزقا حسنا ، وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنها كم عنه، إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت ، وما توفيقى إلا بالله ، عليه توكلت وإليه أنيب ويا قوم لا يجرمنكم شقاقى أن يصيبكم مثل ما أصاب قوم نوح أو قوم هود أو قوم صالح ، وما قوم لوط منكم ببعيد . واستغفروا ربكم ثم توبوا إليه إن ربى رحيم ودود . قالوا ياشعيب ما نفقه كثيرامما تقول وإنا لنراك فينا ضعيفا ولولا رهطك لرجمناك ، وما أنت علينا بعزيز . قال ياقوم أرهطى أعز عليكم من الله واتخذتموه وراءكم ظهريا ، إن ربى بما تعملون محيط . وياقوم اعملوا على مكانتكم إنى عامل سوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ومن هو كاذب ، وارتقبوا إنى معكم رقيب .

وأما فى سورة الشعراء فتجرى أفكارهم على نحو آخر فنراهم يتحدون القضاء ويطلبون إلى شعيب أن يسقط عليهم كسفا من السماء . وفى ذلك يقول الله تعالى : « قالوا ياشعيب إنك لمن المسحرين » ، (أى الذين غلبوا على عقولهم فأصبحوا لا يعرفون ما يقولون) « وما أنت إلا بشر مثلنا وإن نظنك لمن الكاذبين . فأسقط علينا كسفا من السماء إن كنت من الصادقين » .

وحينما يتحدث الله عن مصير هؤلاء

الذين كذبوا شعيبا يقول فى سورة الأعراف : « الذين كذبوا شعيبا كأن لم يغنوا فيها ، الذين كذبوا شعيبا كانوا هم الخاسرين » ، ويقول فى سورة هود : « ولما جاء أمرنا نجينا شعيباً والذين آمنوا معه برحمة منا وأخذت الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا فى ديارهم جاثمين ، كأن لم يغنوا فيها ، ألا بعدا لمدين كما بعدت ثمود » ويقول في سورة الشعراء «فكذبوه فأخذهم عذاب يوم الظلة إنه كان عذاب يوم عظيم » .

وبمثل هذه الطريقة وعلى هذا النهج الحكيم يذكر الله فى كتابه سائر قصص الأنبياء والمرسلين ...

عصمة الأنبياء كما يصورها القرآن :

عصمة الله لأنبيائه هى الحصانة التى يمنحها الله لهم حتى يكونوا بمأمن من الانزلاق إلى الخطيئة وحتى لا تستطيع الشرور والآثام أن تجد سبيلاً إلى نفوسهم وحتى يظلوا منذ يبعثهم الله إلى أن يختارهم إلى جواره مبرئين من النقائص والعيوب .

« والعصمة للأنبياء واجبة لأنهم القدوة الحسنة والمثل الكاملة العليا أمام الأمم والشعوب ، وقد أدبهم الله وصنعهم على عينه ، هيأهم لأجلّ غرض وأكرم غاية وأعدهم لتحمل الأمانة الغالية فهو يصطفيهم ويختارهم من عباده ويضفى عليهم من عنايته ورعايته ما يجعلهم أهلا لتحمل الكفاح وبلوغ الهدف المرجو لهم .. وإذا علمنا أن أهداف النبوة هى قيادة البشر إلى ما يصلحهم فى دنياهم وآخرتهم فلابد أن تتوفر لهم شروط القيادة والزعامة فيكونوا صادقين أمناء مبرئين من العيوب معصومين من الخطايا والذنوب وإلا فقدوا ثقة الناس بهم وأصبح هناك مجال للشك فى أنبائهم وأخبارهم .

وحينما نستعرض الآيات القرآنية التى ذكرت عن الأنبياء والمرسلين يتبين لنا أن الله عز وجل قد اختصهم فى كتابه الكريم بمزيد من العناية والتكريم وذلك لكثرة الآيات التى تعرضت لقصصهم وصورت لنا ما كانوا عليه من طهارة

شاملة وتقاء كامل وإيمان وصل إلى أعلا درجاته وأسمى غاياته فيقول الله تعالى عن إبراهيم عليه السلام : « إن إبراهيم كان أمة قانتا لله حنيفا ولم يك من المشركين . شاكرا لأنعمه اجتباه وهداه إلى صراط مستقيم » .

ويقول عن إسماعيل عليه السلام : «واذكر فى الكتاب إسماعيل إنه كان صادق الوعد وكان رسولاً نبياً . وكان يأمر أهله بالصلاة والزكاة وكان عند ربه مرضياً » .

ويقول عن إدريس عليه السلام : «واذكر فى الكتاب إدريس إنه كان صديقا نبيا . ورفعناه مكانا عليا » إلى غير ذلك من الآيات التى وصف الله بها أنبياءه بأجل الأوصاف وأعظمها إلى أن يقول عن خاتم الأنبياء محمد صلى الله عليه وسلم : « وإنك لعلى خلق عظيم » .

بيد أن هناك بعض آيات من القرآن الكريم تبدو فى ظاهرها وكأنها تتجافى مع العصمة الواجبة للأنبياء ولكنها لدى التأمل والإمعان ومعرفة الظروف والأحوال التى أحاطت بها يتبين بوضوح أنها لا تتجافى أبدا مع العصمة التى كرَّم الله بها أنبياءه .

ومن هذه الآيات قوله تعالى عن أدم عليه السلام حينما استجاب لوسواس من الشيطان فأكل من الشجرة بعد أن نهاه الله عنها : « وعصى أدم ربه فغوى » . فكيف يمكن العصيان والغى من آدم وهو نبى ؟ .

وكذلك قوله تعالى عن أدم وحواء «هو الذى خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها ليسكن إليها، فلما تغشاها حملت حملا خفيفا فمرت به فلما أثقلت دعوا الله ربهما لئن آتيتنا صالحا لنكونن من الشاكرين ، فلما أتاهما صالحا جعلا له شركاء فيما آتاهما، فتعالى الله عما يشركون » فكيف يجوز إذاً من آدم وحواء أن يجعلا لله شركاء ؟ .

وفى قصة إبراهيم عليه السلام يقول الله تعالى : « وإذ قال إبراهيم : رب أرنى كيف تحى الموتى قال :أو لم تؤمن ؟ قال : بلى ولكن ليطمئن قلبى » . فما ذلك

الاطمئنان ؟ وهل يمكن أن يكون إبراهيم عليه السلام غير مطمئن القلب بالإيمان ؟

ونرى فى قصة يوسف عليه السلام قوله تعالى : « ولقد همت به وهم بها لولا أن رأى برهان ربه » فما المقصود بقوله تعالى عن يوسف : وهمَّ بها ، وهى فى ظاهرها تشير أن يوسف قد هم بامرأة العزيز وهو النبى المعصوم .

وفى قصة داود عليه السلام نرى قوله تعالى « وظن داود أنما فتناه فاستغفر ربه وخر راكعا وأناب » فما تلك الخطيئة التى وقعت منه حتى طلب المغفرة من الله ؟ .

وفى حديث القرآن عن خاتم الأنبياء والمرسلين محمد صلى الله عليه وسلم نرى بعض الآيات القرآنية التى تبدو فى ظاهرها وكأنها تتنافى مع العصمة الواجبة له ولكنها لدى التأمل وإمعان النظر تنكشف حقيقتها التى لا تخدش العظمة ولا توهن جانبها . وإذا أردنا أن نضرب بعض الأمثلة على ذلك فإننا نذكر قول الله تعالى « يأيها النبى لم تحرم ما أحل الله لك تبتغى مرضاة أزواجك » وقوله تعالى : « ماكان لنبى أن يكون له أسرى حتى يثخن فى الأرض تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة والله عزيز حكيم » . وقوله تعالى : « عبس وتولى أن جاءه الأعمى وما يدريك لعله يزكى أو يذكر فتنفعه الذكرى . أما من استغنى فأنت له تصدى » .

وجه الحق فيما أشكل :

والواجب علينا الآن أن نبين وجه الحق فى هذه الأمثلة التى ذكرناها لكم حتى تطمئن قلوبنا جميعا وحتى لا تترك مجالاً لنزغات الشيطان وذلك كله فى حدود استطاعتنا وبقدر ما تيسر لنا فهمه من المصادر فى هذا السبيل .

وأول ما نذكره فى هذا الصدد هو ما أخبربه الله عز وجل عن آدم عليه السلام حيث قال : « وعصى آدم ربه فغوى » والمعروف أن الله قد أمره ألا يأكل من الشجرة ولكن إبليس أغواه فأكل منها هو وزوجه فأخرجهما الله من الجنة وأنزلهما إلى هذه الأرض فكيف يمكن أن يقع ذلك من النبى المعصوم ؟

والجواب أن يقال : إن هذه المعصية ليست متعمدة وإنما وقعت بسبب النسيان والنسيان لا يعتبر خطيئة . وإنما هو عصيان فى الظاهر . وإنما سماه الله معصية على حد قولهم « حسنات الأبرار سيئات المقربين » .

أو يقال : إن آدم تأول فى الأكل من الشجرة وفهم أن الله قد نهاه عن شجرة بعينها فلم يأكل منها بذاتها ولكنه أكل من شجرة أخرى من جنسها فاعتبر عاصيا بينما هو فى واقع الأمر قد اجتهد فأخطأ وإنما اعتبر الخطأ فى الاجتهاد عصيانا نظرا لعلو مركز آدم وسمو مقامه. فإذا علمنا أن ذلك قد وقع منه قبل النبوة أصبح الأمر هيناً والخطب يسيراً وإنما الآية التى يقول فيها الله فلما آتاهم صالحا جعلا له شركاء فيما آتاهما فتعالى الله عمايشركون فالكلام على حذف مضاف والتقدير جعل أولادهما وهم الذرية التى بعد بها العهد فنسيت الله وأشركت به غيره والدليل على ذلك هو قوله تعالى « فتعالى الله عما يشركون » ولو كان المقصود بذلك آدم وحواء لبقى الضمير المثنى كما هو فى صدر الآية وقال : « فتعالى الله عما يشركان » .

وأما فى قصة إبراهيم عليه السلام فالآية بحسب ظاهرها فيها ما يشعر بأن إبراهيم ليس مطمئن القلب لأنه يقول : «ولكن ليطمئن قلبى » . ولكن ينبغى لنا ألا ننظر إلى هذه الفقرة وحدها دون نظر إلى ما قبلها وما بعدها . فإبراهيم حينما حاجه النمرود فى ربه قال إبراهيم « ربى الذى يحيى ويميت » وإذن فهو يؤمن كل الإيمان بأن الله هو الذى يحيى ويميت . وحينما سأله الله : أو لم تؤمن ؟ قال : بلى . أى نعم أنا مؤمن ، والإيمان ما هو إلا اطمئنان القلب ولكن إبراهيم أراد أن ينتقل إلى درجة أعلى فى الإيمان والاطمئنان وهى درجة المشاهدة المحسوسة وكما نعلم جميعاً . ليس الخبر كالعيان .

وفى قصة يوسف عليه السلام يقول الله تعالى : « ولقد همّت به وهمّ بها لولا أن رأى برهان ربه » . ويقول بعض

لمفسرين فى ذلك - وما أعجب
مايقولون- إن إمرأة العزيز قد همت
بيوسف ليضاجعها وقد همّ بها وقعد منها
مقعد الرجل من امرأته فلما لم يبق شئ
من إتمام ما قصدته وقصده جاء جبريل
فأخبره بأنه سيكون نبيا وأن هذا عمل لا
يليق بمن سيكون من الأنبياء فكف عنها
وهذا هو برهان ربه وبهذا يكون المعنى
لولا أن رأى برهان ربه لفعل ..

وقال آخرون : إن برهان ربه هو أنه
نظر فرأى وجه أبيه وهو يؤنبه على هذا
العمل عاضا على أنامله . وقال آخرون
أن يوسف نودى من الله : يا يوسف .
إنك مكتوب فى ديوان الأنبياء فكيف تعمل
عمل السفهاء ؟ .

ولا شك أن مثل هذه الأقوال تحمل
فى طياتها ما يوهنها بل ما يهدمها . فإن
أى شخص مهما كان من المجون
والاستهتار لو فرض وأن جبريل نزل عليه
ليخبره بأنه سيكون نبيا لما كان هناك
أمامه سبيل إلا الامتناع عما كان سيقدم
عليه من معصية . ومثل هذه الروايات
تظهر لنا يوسف عليه السلام بمظهر
الشخص المسلوب الإرادة وأنه كان
بسبيل المعصية لولا أن حالت دونها
الحوائل ..

والواقع أننا لو نظرنا إلى سياق
الآيات فى قصة يوسف يتجلى لنا معنى
همَّها به وهمَّه بها . فالآية التى قبل ذلك
تقول : " وراودته التى هو فى بيتها عن
نفسه وغلقت الأبواب وقالت « هيت لك » .
قال معاذ الله إنه ربى أحسن مثواى إنه
لا يفلح الظالمون " .

وهناك آية أخرى بعد ذلك تسجل
اعتراف امرأة العزيز بقولها : " ولقد
راودته عن نفسه فاستعصم " أى أبى
وامتنع بشدة . وقولها بعد ذلك : " الآن
حصحص الحق أنا راودته عن نفسه وإنه
لمن الصادقين " . فالقرآن يرينا أن امرأة
العزيز تعلق قلبها بيوسف وظنت -
وبعض الظن إثم - أنه خادم كبقية الخدم
لا يخالف لها أمراً فراودته عن نفسه
وهيأت له أسباب الفاحشة بأن أغلقت
الأبواب وخلت إليه حتى لا يحتشم من

شىء فلم يطعها فى ذلك فأبى واستعصم وانقلب من فتى وادع وخادم مطيع إلى شخص ثائر يصرخ بملء فيه : " معاذ الله إنه ربى أحسن مثواى " . وبذلك يمكنك أن تفهم المراد من قوله : " ولقد همت به وهمَّ بها " وهو أنها همت به لتنتقم منه لأنها حانقة عليه إذْ لم يجبها إلى هذا الطلب وهى سيدة مطاعة لم تتعود أن يعصى لها أمر ولا سيما من خادم كيوسف .

ومن ناحية أخرى فإن شغفها بيوسف قد وصل بها إلى حدٍّ الجنون فإذا تأبَّى عليها وحال بينها وبين ما تشتهى فإن ذلك يزعجها ويخرجها عن حدها . فإذا همت به همَّ إيذاء فلأنه أضاع عليها فرصة هى فرصة العمر فى نظرها . أما همُّه فهو هَمٌّ دفاع عن النفس وفراً من المعصية وسدٌّ لأبواب الشر والفسق لأن ذلك هو اللائق بيوسف من حيث مكانته ومن حيث مستقبله ومن حيث الواجب عليه فى ذلك الظرف العصيب . . وقوله : " لولا أن رأى برهان ربه " أى لولا أن رأى علامة حضور رب البيت وهو العزيز ولولا ذلك لوقع ما لا تحمد عقباه .

وإذن فحضور العزيز هو الذى أنقذ الموقف ولولا أنه حضر لتطورت الحالة بين امرأة العزيز ويوسف وربما اشتد انتقامه منه وأدى ذلك إلى حصر لا ريب فيه .. وبهذا ينتفى الحرج عن يوسف عليه السلام وتظهر لنا صفحته بيضاء نقية من شوائب الذنب والمعصية .

ويرى بعض المفسرين المحققين أنها همَّت به همَّ إقبال وهمَّ بها همَّ طرد وإبعاد . ولولا أن رأى برهان ربه أى ولولا الإيمان الموجود فى قلبه لهمَّ بها همَّ إقبال . فالإيمان هو الذى حال بينه وبين الشر وعصمه من السوء ، وهو رأى جميل لا غبار عليه .

وفى قصة داود عليه السلام يقول الله سبحانه فى سورة « ص » : " وهل أتاك نبأ الخصم إذ تسوروا المحراب إذ دخلوا على داود ففزع منهم قالوا لا تخف خصمان بغى بعضنا على بعض فاحكم

بيننا بالحق ولا تشطط واهدنا إلى سواء الصراط . إن هذا أخى له تسع وتسعون نعجة ولى نعجة واحدة فقال أكفلنيها وعزّنى فى الخطاب . قال لقد ظلمك بسؤال نعجتك إلى نعاجه وإن كثيراً من الخلطاء ليبغى بعضهم على بعض إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وقليل ما هم وظن داود إنما فتناه فاستغفر ربه وخرَّ راكعاً وأناب . فغفرنا له ذلك وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب ".

ويسرف بعض المفسرين على أنفسهم وعلى الناس حينما يزعمون أن داود كان متزوجاً بتسع وتسعين امرأة وأنه أغرم بامرأة رجل أجنبى عنه وأراد أن ينتزعها من تحت يده ليكمل بها المائة فأرسل الله إليه ملكين فى صورة رجلين متخاصمين أحدهما يملك تسعاً وتسعين نعجة والآخر يملك نعجة واحدة ويريد صاحب التسع والتسعين أن يملك تلك النعجة ليكمل بها المائة . ولقد حكم داود على ذلك الرجل بأنه ظالم . وكان تعليماً من الله لداود بأن يبتعد عما يفكر فيه من أخذ تلك المرأة التى يريد أن يكمل به المائة .

والواقع أن هذه الرواية من الروايات الموضوعة التى يراد بها التشكيك فى أنبياء الله الذين اختارهم واصطفاهم . وهذه القصة التى ذكرها الله قصة رجلين حقيقيين يمتلك أحدهما تسعاً وتسعين نعجة ويمتلك الآخر نعجة واحدة وقد نازعه فيها صاحب التسع والتسعين وقد دخل هذان الخصمان على داود من غير المدخل المعتاد وفى غير وقت جلوسه للحكم ففزع منهما ظاناً أنهما يريدان اغتياله . فلما ظهر له أنهما إنما جاءا فى خصومة ليحكم بينهما وأن ما ظنه غير واقع فاستغفر ربه من أجل هذا الظن وخرَّ ساجداً منيباً إلى الله تعالى فغفر الله ذلك الظن لأنه ما كان ينبغى من مثله. وكما هو معلوم أن « حسنات الأبرار سيئات المقربين » أو يقال إن الخطأ الذى وقع من داود أنه سمع حجة أحد الخصمين وهو صاحب النعجة الواحدة ولم يسمع حجة الخصم الآخر

وهو صاحب التسع والتسعين وتسرع من أجل ذلك فى الحكم دون أن يمعن النظر ويرى حجة الخصم الآخر ومن أجل ذلك استغفر ربه من هذا الخطأ الذى وقع فيه نتيجة للسهو . ومن الطبيعى أن مثل هذا الخطأ لايتنافى مع العصمة .

وأما قوله تعالى لمحمد صلى الله عليه وسلم : " يأيها النبى لم تحرم ما أحل الله لك " فلم يكن الرسول قد حرم ما أحل الله بما يفهم من ظاهر الكلمة وإنما تشير الآية الكريمة إلى قصة معروفة وقعت بين نساء الرسول صلى الله عليه وسلم . وذلك أن الرسول كان إذا صلى العصر مرَّ على سائر نسائه فيمكث عند كل واحدة وقتاً يسيراً للإيناس وإذهاب الوحشة ، ولكنه دخل عند زينب بنت جحش فشرب عندها عسلاً كان قد أُهدى لها من أهلها وفعل ذلك عدة مرات ، فاتفق نساء الرسول على أن تقول له كل واحدة منهن إذا دنا منها إنى أجد منك ريح المغافير ، والمغافير نبات حلو الطعم ولكنه متغير الرائحة . فلما ذهب الرسول إلى عائشة قالت له هذا الكلام فقال : " لا ، ولكنى شربت عسلاً عند زينب " . فقالت له : " لعله قد جرست نحلة العرفط « أى أن النحل قد أكلت من نبات العرفط وهو نبت له ريح الخمر » " . ولما ذهب إلى حفصة قالت له مثل هذا الكلام . وهكذا . وكان الرسول يحب الريح الطيبة ويكره أن يأكل الطعام الذى يسبب الرائحة الكريهة ، ومن أجل تواطئهن جميعاً على هذا الكلام حرَّم الرسول صلى الله عليه وسلم العسل على نفسه ، فنزل قوله تعالى : " يأيها النبى لم تحرم ما أحل الله لك تبتغى مرضاة أزواجك والله غفور رحيم " .

وبذلك يكون ما فعله الرسول لا يتعلق بالدائرة الكبرى فى الحلال والحرام المتعلق بأفعال العباد وإنما يرتبط بالدائرة الخاصة بينه وبين زوجاته فى مسألة شخصية وفى أمر خاص لا يتعداه إلى غيره .

وأما قوله تعالى : " ما كان لنبىٍّ أن يكون له أسرى حتى يثخن فى الأرض

تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة والله عزيز حكيم . لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم " «الأنفال آية ٦٧ ، ٦٨ » .

فهو عتاب من الله لرسوله حينما اجتهد فأخطأ في اجتهاده وقبل الفداء من الأسرى المشركين في يوم بدر ولم يقتلهم . وقد ظن الرسول أن الخير والمصلحة العامة في ذلك وفقاً لمشورة فريق من المسلمين فقضى به وأمضاه . وكان عتاب الله لرسوله لكي يرشده إلي ما يجب أن يكون بعد ذلك ، وليس معناه أن الرسول قد ارتكب ما يؤاخذه الله عليه وهذا هو ما يفهم من قوله تعالى : " لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم " أى لولا ما حكم الله به من أن المجتهد إذا أخطأ لا يؤاخذ بخطئه لمسكم العذاب .

وأما قوله تعالى : " عبس وتولى أن جاءه الأعمي " إلي آخر الآية فهو كذلك - خطأ وقع باجتهاد من الرسول صلى الله عليه وسلم ذلك أن الرسول كان متصدياً للحديث مع الوليد بن المغيرة يحاول أن يهديه للإسلام . والوليد سيد من سادات قريش وفى إسلامه كسب كبير ومغنم عظيم . ومن أجل ذلك كان الرسول مستغرقاً فى الحديث معه ومشغولاً به عن كل شىء ، وفى هذه اللحظات مرَّ به عبد الله بن أم مكتوم « الأعمى » ، وجعل يستقرئه القرآن وألح عليه قائلاً : " علمنى مما علمك الله ، فشق ذلك على النبى وآلمه أن يحاول هذا الرجل صرفه عن الوليد الذى كان يتمنى إسلامه ويطمع فيه فعبس فى وجهه وأعرض عنه فنزلت الآيات الكريمة « عبس وتولى أن جاءه الأعمى » الآيات ، تعلم الرسول أنه أخطأ فيما فعل بهذا الأعمى الضعيف . وكان كلما مرَّ به هذا الرجل بعد ذلك يحسن استقباله ويكرمه . وإذاً فقد كان هذا الخطأ من الرسول عن اجتهاده حيث كان يعتقد أن الفرصة التى يمكن أن تتم بإسلام الوليد سوف يترتب عليها إسلام عدد كبير من بنى مخزوم تبعاً لإسلام سيدهم . أما عبد الله بن أم مكتوم

فيمكن أن يتعلم مبادئ الإسلام فى وقت آخر لا تضيع فيه فرصة وجود الرسول مع الوليد وتصدِّيه لهدايته .

وبهذا يتضح لنا أن هذه الأمور التى عاتب الله فيها نبيه الكريم ليس فيها مخالفة لما أمربه الله ولا وقوع فيما نهى عنه وهى مع ذلك لا تغضى فى قليل أو كثير من المثل الأخلاقية التى عرف بها الرسول صلى الله عليه وسلم ولا تتنافى مع العصمة الواجبة له .

وإذاً فالنتيجة التى يجب أن نطمئن إليها هى أن مثل هذه الآيات التى تبدو لأول وهلة وكأنها لا تنسجم مع العصمة الواجبة للأنبياء إذا عرف سبب نزولها وفهمت على الوجه الصحيح ونظر إليها بنفس صافية من الشوائب زادتنا إيماناً ويقيناً بأنهم صلوات الله وسلامه عليهم مبرءون من العيوب . معصومون من الذنوب بعيدون عن الشرور والآثام .

وما أجل العبرة التى تتلمس من قصص الأنبياء فى كتاب الله الكريم . وياله من هدف عظيم ذلك الذى أراده الله حينما قصَّ على الرسول صلى الله عليه وسلم من أنباء هؤلاء الرسل والأنبياء .

" وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك وجاءك فى هذه الحق وموعظة وذكرى للمؤمنين " « سورة هود آية ١٢٠ » .

" لقد كان فى قصصهم عبرة لأولى الألباب ما كان حديثاً يفترى ولكن تصديق الذى بين يديه وتفصيل كل شيء وهدى ورحمة لقوم يؤمنون " « سورة يوسف آية ١١١ » .

وبالله التوفيق ...

محمد الطيب النجار

عضو المجمع